سعادة الدنيا

قال فيها بعض ادباء الانكليز: هي خيال نسمع عنها كثيرًا ولا نرى منها الاَّ قليلاً وجودها دائمًا ونكثها دائم على ان التصديق بها دائم ايضًا. تغرينا بالكلام بدئ الحقيقة وبالزهر بدل الثمر. رسولها الامل ورفيقها الفشل. يقصدها البشر في طرق كثيرة فبطلبها البعض بالمسرات والبعض بالحكمة والبعض بكليهما والكل فيها خائبون. وقد قام قوم توهموا انهم اذا سبوها كسبوها واذا جانبوها ربحوها واذا هربوا منها تبعتهم. وهي مكَّارة كالهدوء الذي يسبق العاصفة وكالسراب الذي يخدع المسافر بامل باطل ينشئهُ البعد وينزعهُ القرب. على انها كثيرًا ما توجد اذا لم تطلب وتنال اذا لم تتوقع ويجتنب الذين يجدّون في طلبها لانهم يطلبونها حيث لا تكون. فقد طلبها انطونيوس في العشق وبروتوس في الفخر وبوليوس قيصر في السيادة فكان للاول العار وللثاني الكره وللثالث الغمط وللثلاثة الهلاك. تهب السلطة للفخور والمال للحريص والشهرة للعاشق والهم للمتقم وهي كلها اسماء للتعب والفشل. تنال لا بالتملُّق والرشوة بل بمقاومة اعدائها فاذا غلبت الاعداء لم يبقَ حاجة الى الذهاب اليها لانها تأتي من تلقاء نفسها. فاسمعي مني ايتها الملكة العظيمة كلام الرصانة والحق فاني لا اقل من الرغبة عنك ولا اكثر من الرغبة فيك لان سلطانكِ سلطة ارضية وعطاياكِ لا تتجاوز ما لكِ من السلطة فانتِ بنت صروف الزمان واذا نزعت اعوانكِ عجزتِ عن الوقوف بنفسكِ فاذا لم تسندكِ القناعة من الجانب الواحد والعافية من الجانب الاخر سقطتِ سقطة العاجز الكليل. انتهى

وللناس اقوال كثيرة توافق ما سبق في ازدراء نعيم الحياة او انكاره فمن اقوال الرومانيين من احبتهُ الآلهة مات صغيرًا. وقال احد كتاب الانكليز السعيد من ينال ما يطلبهُ ومن اذا نال رضي. وقال بيكنسفيلد السياسي العظيم للشباب اخطاؤه وللكهولة اجتهادهُ وللشيخوخة الأسف. وقال تيسون الشاعر والفيلسوف الانكليزي قد كانت حياتي سعيدةً ولكنني لا اريد ان احياها مرة اخرى. وقال بعضهم السعادة كالصدى تسمع صوتهُ ولا تراهُ. ومن الاقوال الانكليزية لا تقل في احد انهُ سعيد حتى يموت (لان نكبات الزمان كثيرة) وقال ابو الطيب المتنبي

ابدًا تنزدهُ ما تهبُ الدنيا فيا ليت جودها كان بخلا

وقال ايضاً

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلّبت على عينهِ حتى يرى صدقها كذبا

ومن يتأمل في ما سبق يسأل نفسهُ في الحال هل هذا الكلام حقيقة راهنة لا شيء فيهِ من الغلوّ والوهم او هو ككثير من الاقوال الشائعة والحكم والامثال السائرة التي لا تصحّ الاّ اذا نظر الى معناها المحصور في حدود وقيود . وعندي ان هذا الحدّ الاخير هو الصواب وأرى اني اذا اضفت ما توصّلت اليهِ بطول الخبرة والفكرة ربما كان في ذلك شيء من تبصير الشبان الذين بدأوا الحياة ولا يعرفونها كما يعرفها الشيوخ . فاقول

١ . لا سبيل الى الانكار انّ في الدنيا شيئاً حقيقيّ الوجود يقال لهُ سعادة وهي عبارة عن اللذة التي تشعر بها النفس عند بلوغها غرضاً تطلبهُ او خيراً تتمتع بهِ . وهي شائعة بين الناس على اختلاف طبقاتهم واحوالهم ولو تفاوتت في الكيف والكم ولو كانت سريعة الزوال ولو كانت خادعة او مخدوعة . وقد قال فيها المتنبي

تصفو الحياة لجاهلٍ او غافلٍ عما مضى منها وما يتوقّعُ
ولمن يغالط في الحقائق نفسهُ وينومها طلب المحال فتطمعُ

٢ . بعض السعادة يقوم بالسعي الى غرض مطلوب فاذا حصل لم يكن السرور غالباً الاّ الى برهة قصيرة وهو كقول بعضهم ليس الفخر بالملك بل بالطلب . وكثيراً ما يخيب امل الانسان في ما يفوز بهِ لانهُ ينتظر من الدنيا اكثر مما في طاقتها ان تهب ويكون مثلهُ مثل من اذا قبض على شقائق النعمان انثرت اوراقها في الحال

٣ . تختلف انواع السرور في الحياة باختلاف السن والاحوال الخاصة بها . فما يسرّ الولد اللعب واللهو . وما يسرّ الشاب قوة شبابهِ وعشرة اصحابهِ وشروعهُ في اعمال الحياة مع ما يرتجيهِ من التوفيق . وما يسرّ الكهل الجد والكسب وادخار المال وما يراهُ من فلاح اولاده في تحصيل العلم وحسن السيرة وامل المستقبل الجميل . وما يسرّ الشيخ الغنى عن الغير والعافية والراحة . قيل اجتمع مرةً شيخان بعد فراق يطويل فتصافحا وتذكرا ايام الصبا ثم سأل احدهما الآخر ماذا بلغت الآن من العمر قال اني على تمام العقة ولله الحمد . قال عساك جمعت مالاً كثيراً قال ما عليّ شيء من الدين ولله الحمد . قال هل بك شيء من الهمّ قال ليس لي اولاد صغار ولله الحمد . وقال آخر اتمنى ان يكون لي قبل ان اموت بيت صغير وحديقة كبيرة ومن الاصدقاء القليلين والكتب الكثيرة ما اجد فيهم وفيها صدقاً وحكمة ولذة

٤ . كثير من نعيم الحياة يأتي من زوال امر مكروه كالفرج بعد الضيق والاكل عند

الجوع والشرب عند العطش والراحة عند التعب والنوم عند النعاس . واخصهُ واعظمهُ ما يكون من الشعور بالعافية عند زوال المرض والالم ومضضهِ وهو ما لا يعلمهُ الاَّ من اختبرهُ وتحقق قول القائل انعافية تاج على رؤوس الاصحاء لا يراهُ الاَّ المرضى . وفي الجملة ربما كان معظم السرور ما ينشأ من زوال الهمّ والشدّة والشقاء على انواعها والخوف من شرّ يُتوقع كسحابة سوداء تبدّدها الرياح فتصحّ وصية الشاعر

دع المقاديرَ تجري في اعنّتها ولا تبيتنَّ الاَّ خاليَ البالِ
ما بين طرفة عينٍ وانتباهتها يغيّر الله من حالٍ الى حالِ

٥ . اتفقت اقوال حكماء الارض على ان لا سعادة في الدنيا الاَّ للقانع الراضي ولا يريدون بذلك المتكاسل المتراخي القانع بذلّ الجهل والفقر الراضي بما يظنهُ مقدّرًا لهُ وفي وسعهِ ان يسعى ويرتقي في سعة العيش ومراتب الحياة فان هذا هو الذليل الفقير وهو غير المراد الذي عنوهُ في كلامهم . وانما الذي نفوا السعادة عنهُ الحريص الطماع الذي لا حدّ لطمعهِ الذي يكدّ نهارًا وليلاً ليسبق اقرانهُ في المال والجاه والرفاهية وربما لم يفز في سعيهِ بين الحلال والحرام وبين وسائل الشرف والخساسة وربما بلغ شرههُ شره المريض الذي يأكل ولا يشبع حتى يموت . ومما لا يجمع بين السعادة وبينهُ الحرص الشديد والافراط في العمل وحرمان النفس من الراحة والملذات الجائزة وقبض الكفّ عن الاحسان وخير العامة . فقلما يقول احد منهم قول كرنجي الذي ادهش الدنيا بكرمهِ في سبيل الخير " عارٌ على المرء ان يموت غنيًّا " . ومما عنوهُ بالقناعة الجمع بين السعي الذي لا يجحف بحقوق الناس ولا يتجاوز الحدود العادلة وبين قصر العيش وبين راحة الرضى في القلب والعيش . ومن اخصّ مظاهرها البساطة في الحياة التي صار لذكرها حديثًا شأن كبير في اوربا واميركا ومقام رفيع عند الامم المتمدنة . والمراد بها الاعتدال في الطعام واللباس واثاث البيوت ودماثة الاخلاق ولطف المعاشرة وسلامة النية والصدق والاخلاص في القول والعمل

٦ . بقي ان اذكر اهمّ ما يقال في هذا البحث وهو ان سعادة الحياة امر محال لكل من لا يطيع النواميس التي سنّها الله في الكون وجعل حكمها قاطعًا لا مردّ لهُ سواء كانت طبيعية او ادبية . فكما ان الشمس تُشرق وتُغرب والنار تحرق هكذا حكم كل ما يتعلق بمعيشة المرء بحيث لا يكون فلاح حقيقيّ ولا سرور في الدنيا الاَّ لمن يراعي ما تأمر بهِ او تنهى عنهُ السنن الادبية واذا عصاها احد فلا بد من ان ينال ما جنت يداهُ عاجلاً او آجلاً . فكما يقطع السارق ويُقتل القاتل ويفتقر الزاني ولو بعد حين هكذا تسوء عاقبة الكذّاب والخادع والظالم والنجس .

وليست صرامة وصايا الدين في هذا الشأن باقلّ من صرامة النواميس الطبيعية والادبية فاذا وعدت الاولى بالخير لاهل الخير أسبغت الثانية نعمها عليهم واذا توعدتهم بالشرّ فهو ما يلاقيه المسرف جزاء اسرافه . وان قيل ألا يكون الشرير سعيداً وكثيراً ما نراه مرزوقاً موفقاً متنعماً قلنا في سعادة كاذبة سريعة الزوال وكثيراً ما يعقبها الألم ويعقبها الشقاء . وان كان في الفحش والخلاعة والمقامرة سعادة فاين ما تأتي به من المرض والفشل والخسارة والخراب واين ضوابط ناموس الارجيات التي تجعل حكم النادر في حكم المعدوم . وان قيل في امور لا قياس لها ولا ضابط بل هي من لوازم السعد والنحس المتسلطين على الانسان بنوع لا ندركه قلنا هذا كلام الجازف الذي يجهل اول حقيقة من حقائق الكون وهي ان لكل معلول علة ولكل شيء سبباً وان لشرائع الطبيعة السلطة القاضية بكل ما كان وبكل ما يكون فاذا اختلفت عن ابصارنا احياناً لم يكن ذلك دليلاً على حدوث الامر اتفاقاً الاّ من حيث الظاهر فقط او على اثبات السعد والنحس اللذين جعلهما الزوفان الهين من الآلهة الكثيرة التي كانوا يعبدونها فما بالنا نعبدها ولا نعبد آلهتهم الاخرى او على اقتران النجوم وطوالعها التي كانت من معتقدات قرون الظلمات والجهل

فان شئت ايها الشاب ان تعيش سعيداً وان تموت سعيداً فليس لك من سبيل الى ذلك الاّ مراعاة السنن التي سنّها الله في الدين والطبيعة معاً فاسعَ بالامانة في ما يجب عليك من العمل وكن قنوعاً راضياً في ما يُقدر لك شريفاً في اخلاقك صادقاً في كلامك بسيطاً سخي معيشتك معتدلاً في كل اهوائك . وابعد عن كل ما تنهاك عنهُ تلك السنن من عادات السوء التي اذا لازمتها قهرتك وشدّت وثاقك واستعبدتك ولم يبقَ لك نجاة منها الاّ بقدرة الله . ولا تحسبنّ ان في المقامرة والمضاربة ربحاً لك فان ناموس الارجحية ضدك ولم نرَ احداً أثرى من هذا الباب ودامت ثروتهُ او لم يخسر اخيراً ماله وعافيتهُ واستهُ وراحة بالهِ . ومن الشائع المحقق عند الجمهور ان هذه المكرات والمنكرات الظالمة لا تؤدي ابداً الى شيء من نعيم الحياة ولكنها تنتهي دائماً الى الويل والهلاك واذا لم تنتبه الى كلام الله وسنن الطبيعة وخبرة الشيوخ وحكم الناس بالاجماع فرحمة الله على مصيرك

يوحنا وربات